يوحنا الدمشـــقي

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جواد علي

— ٢ —

ذكرنا أن يوحنا جادل المسلمين في طبيعة المسيح ، وأنه وضع خطة للمسيحيين وجدة ثابتة للبحث والمناظرة استهلها بهذه الكلمة : « إذا سألك العربي ما تقول في المسيح ؟ فقل له إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم بعد ذلك لم سُمّي المسيح في القرآن ؟ وليفرض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم فإنه سيضطر إلى أن يقول : « كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه »[١] ، فإن أجاب بذلك ، فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذاً كان ولم تكن له كلمة ولا روح . فإن تلت ذلك فسيفحم العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين »[٢] .

قال المستشرقون : أثار يوحنا بهذا السؤال وبأمثاله مشاكل خطيرة في الإسلام كمشكلة « خلق الأفعال » ومشكلة « خلق القرآن » ومشكلة « صفات الله » وأخرابها . لأنه استدرجهم على رأيهم بهذه الأسئلة والأجوبة إلى أمور لم يكن المسلمون يخوضون فيها . وهو رأي لا يسمح لنا الموقف بالتعرض له لأننا في موضع ترجمة شخص لا في موضع مناقشة آراء .

على أن في كتب الأخبار والفرق والتواريخ ما يتعارض مع كثير من عقائد مذهب المستشرقين . وما بالنا نذهب بعيداً وفي عبارة يوحنا نفسها مايفند هذا الرأي ويدحض هذا الزعم؟ جاء على لسانه : « فسيفحم العربي لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين » ، ومعنى هذا أن جماعة من المسلمين كانت تتباحث في صفات الله أهي قديمة أزلية أم حادثة ومن جملة ذلك كلام الله[١] . والمعروف أن جعد بن درهم الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري في عيد الأضحية ، والذي كان أستاذ مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية كان من القائلين بخلق القرآن[٢] .

وأما « القدر » والقدرية فقد وردت في القرآن الكريم آيات تدل على أن الإنسان مخير قادر على أفعاله . كما وردت آيات تدل على عكس ذلك ، وقد ورد مثل ذلك في الحديث . ويستشهد « المعتزلة » ومن يذهب مذهبهم على صحة دعواهم بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث من أقوال الرسول[٣] . وقد ورد على لسان الصحابة ما يدل على أن بعض أصحاب رسول الله كانوا يذهبون هذا المذهب . خذ ما جاء في كتاب « نهج البلاغة » لما سئل الإمام علي بن أبي طالب « أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر »[٤] ، وقد أجاب الإمام « بكلام طويل هذا مختاره » .

« ويحك لعلك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاتماً . ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعص مغلوباً ، ولم يطع مُكرهاً ، ولم يرسل الأنبياء لعباً ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار »[٥] .

وروى عن علي كل ما يخالف هذا الكلام ، يرويه أصحاب نظرية « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه »[٦] . وروى عن نافع أن رجلا جاء إلى ابن عمر ، فقال : إن فلاناً يقرأ

---

(١) سورة النساء آية ١٧٠ .

(٢) عن تراث الاسلام ج ١ ص ٢٤٨ . راجع ميمى رقم M. 94, ff 1585 . جاء في ملحوظة (١) من تراث الاسلام ج ١ ص ٢٤٨ : روى ابن خلكان في أخبار الحكماء . وهذا خطأ إذ أن مؤلف أخبار الحكماء هو .

(١) راجع Islam Studies, Part 1 p, 434

(٢) وكان من زملاء غيلان الدمشقي ومعبد الجهني ، راجع كتاب التبصير في الدين لأبي المظفر الاسفرايني ١٩ : ٠ ، وكان له رأي في القدر ص ١٣ أيضاً مختصر كتاب الفرق بين الفرق، اختصار عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني طبعة فيليب حتى . مطبعة الهلال سنة ١٩٢٤ ص ١٢ .

(٣) راجع كتب المعتزلة كالكشاف للزمخشري وكتب علم الكلام أيضاً كتاب الكافي للكليني في الحديث وهو يشرح وجهة نظر أئمة الشيعة

(٤) راجع نهج البلاغة في « باب المختار من حكم أمير المؤمنين » . راجع شرح ابن أبي الحديد .

(٥) نهج البلاغة شرح الامام محمد عبده ج ٢ ص ١٥٣ وهناك رأي الامام

(٦) شرح العقائد النسفية ، كذلك ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٥ .

عليك السلام . فقال ابن عمر : أنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام »[١].

وذكر ابن العبري أن معاوية بن يزيد الأول كان قدرياً (من المؤمنين بالاستطاعة) ، وأن عمراً المقصوص كان قد علمه ذلك فدان به وتحققه ، ولم يزل به حتى أفسد رأيه فلم يقبل بالخلافة ، فوثب بنوأمية على عمرو المقصوص وقالوا أنت أفسدته وعلمته ، فطمروه ودفنوه حيًّا[٢].

إلى آخر ما هنالك من أخبار تدل على أن « القدرية » أو « قدرة الإنسان على خلق أفعاله » كانت قد انتشرت لدى المسلمين قبل أن ينشأ يوحنا بل وقبل جداله مع المسلمين . وأن هذه الفكرة كانت قد اتخذت شكلا اجتماعياً سياسياً خطيراً . روى « أن رجلا قال لابن عمر : ظهر في زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التي حرم الله ثم يحتجون علينا ويقولون : كان ذلك في علم الله . فغضب ابن عمر وقال : سبحان الله ، كان ذلك في علم الله ، ولم يكن علمه يحملهم على المعاصي »[٣].

وكان بنو أمية باستثناء نفر منهم[٤] يكرهون القدرية ومن كان يقول بها ، وقد نكلوا بالقدريين كل التنكيل ، ولذلك لم يكن المعتزلة وهم خلفاء القدريين يعطفون على الأمويين[٥].

« وبنو أمية كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة ، لا ديناً فقط ، ولكن سياسياً كذلك ، لأن الجبر يخدم سياستهم . فالنتيجة للجبر أن الله الذي يسير الأمور قد فرض على الناس بني أمية كما فرض كل شيء ، ودولتهم بقضاء الله وقدره . فيجب الخضوع للقضاء والقدر »[٦].

كذلك أتى عطاء بن يسار ومعبد الجهني الحسن البصري وقالا : يا أبا سعيد ، هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى[٧].

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٤٥ .
(٢) ابن العبري تاريخ مختصر الدول بيروت ١٨٩ ص ١٩٠ وما بعد
(٣) راجع كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم للمولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده طبعة أولى مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر اباد دكن ج ٢ ص ٣٢
(٤) مثل ما ذكرناه عن معاوية وعن يزيد بن الوليد ضحى الاسلام ج ٣ ص ٨٢ ومروان الجعدي .
(٥) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٨١ .
(٦) نفس المصدر .
(٧) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٣٢ .

فالأحداث السياسية التي حدثت بعد وفاة الرسول ، والأوضاع الاجتماعية هي التي أثارت تلك المشكلة التي وردت في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول مع غيرها من المشاكل التي كان الصحابة يحجمون عن الخوض فيها وأعني بها مشكلة المتشابهات .

روى العلماء أنه « في عهد الفاروق رضي الله عنه ، أخذ رجل يقال له صبيغ بن عسل يسأل عن المتشابه ويتكلم فيما لا يعنيه مما قد يحدث فتناً بين العامة ، فطلبه عمر وقال له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، وقال عمر : أنا عبد الله عمر . فأخذ يضربه بعراجين النخل حتى دمى رأسه . فقال صبيغ : حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي ، ثم نفاه إلى البصرة حتى صلح حاله[١].

وعلى كل فقد حدثت هذه المشكلة ، مشكلة القدر والاستطاعة قبل أن يخلق يوحنا بزمن ، فلا يصح إذاً أن يقال بأن يوحنا كان هو مثير هذه المشكلة في الإسلام ، وأن نظرية « القدر » دخلت عن طريق النصرانية وحدها إلى الإسلام بدليل ظهور هذه المشكلة في الشام ، والشام ملتقى النصرانية في الجزيرة العربية ، وبظهور هذه المشكلة في العراق على يد نصراني يقال له سوسن ، كان نصرانياً فأسلم ، وكان أول من نطق في القدر ، وعنه أخذ معبد الجهني ، وعن معبد هذا أخذ غيلان الدمشقي[٢]. فقد رأينا على أن القول بالقدر كان قديماً ، وعلى أنها لم تقتصر على الشام والعراق ، بل ظهرت في الحجاز كذلك بنفس الوقت الذي ظهرت فيه الفتن السياسية ، إن لم يكن قبل ذلك . وفي رواية ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأنس بن مالك ما فيه الكفاية والتسليم[٣] . ولا عبرة أيضاً بإسناد كتب الفرق هذه الفكرة إلى نصراني معين أو مجهول فقد عودتنا هذه الكتب نسبة الفرق المخالفة إلى اليهودية أو المجوسية أو الثنوية والديصانية ، وهي عادة كانت متبعة لدى جميع أهل الأديان[٤] .

(يتبع) جواد علي

(١) التبصير في الدين لأبي المظفر الأسفرايني مطبعة الأنوار سنة ١٩٤٠ ص ٢
(٢) راجع التبصير في الدين ص ٤٠ أيضاً اللالكائي في شرح السنة . كذلك الملل والنحل للشهرستاني وكتب الفرق الأخرى
(٣) راجع التبصير في الدين ص ١٠ مختصر كتاب الفرق بين الفرق ص ٢١
(٤) راجع كتب تاريخ الأديان .